استعراض كتاب

The Heroic Age in Sinnar, by Jayspaulding, Senior Editor Horld G. Mrcus , Published by the African studies Center Michiagn state University, East Lansing, Michian 43824.

عرض بروفيسور حسن مكي محمد أحمد[1]

عصر البطولة في سنار تعريب أحمد المعتصم الشيخ، نشر كتاب الخرطوم الجديدة، هيئة الخرطوم للصحافة والنشر، مطبعة برنتك – ٢٠١١م

قرأت هذا الكتاب في المرة الأولى بلغته الأصلية الإنجليزية ثم لما ظهرت ترجمته الممتازة التي قام بها السفير أحمد المعتصم عكفت على قراءتها بتمعن. ورغم أن التفاصيل والأسماء الكثيرة يذهب بعضها ببعض حتى تحس بأن الخيط الذي يجمع المفردات قد ضاع منك، مثل ما تتناثر حبات العقد حينما ينفرط أمره، إلا أن الأهم هو ما يبقى في الذاكرة من هذه الدراسة الممتازة .

وهذه دراسة قيمة، لأنها اعتمدت على الوثائق والمصادر الأولية في بناء قصتها، وهي أفضل هدية يهتدي بها الطالب أو الباحث الراغب في التخصص في الدراسات السودانية، حيث يتعلم منها كيف يمكن أن تتحول الوثيقة إلى لبنة في البناء، باعتصار الوثيقة واستنطاقها وتحليلها وقراءتها على ضوء ظروف عصرها، فوثيقة زواج أو عقد تجارة، أو قصة مرسلة يمكن بعد التحليل أن تتحول إلى مادة تسد الثغرات التاريخية التي يسعى الباحث لملئها، واستفاد الكاتب من أطروحته للدكتوراة عن دولة الفونج ثم نسخ هذا الكتاب بعد عشرة أعوم من نيله للدكتوراة فكانت كافية لهضم موضوعه وتجويده ووضعه للقارئ في إطاره الذي جاء به.

[1] مدير جامعة إفريقيا العالمية السابق

ركز الكاتب موضوعه في الفترة ١٦٥٠ / ١٧٥٠م وشبه الفترة بفترة الجاهلية التي سبقت الإسلام– وهي مقاربة عصية على الفهم ، لأن الإسلام لم يكن امتداداً للجاهلية وإن استصحبت الحقبة الإسلامية الجاهلية وما فيها من ثقافة وتراث ، بعد أن نسخت إطارها المرجعي اللاديني وأبدلته بإطار توحيدي ، تشكلت في إطاره القيم والثقافة الجديدة ، بروحها التوحيدية ومرجعيتها القرآنية والنقلية.

وفي الحقبة ١٦٥٠– ١٧٥٠ كان المجتمع السناري يتابع ترقياته الروحية في إطار المرجعية الإسلامية، بل ومنذ خراب سوبا ما قبل ذلك بمائة وخمسين سنة، أصبح التوحيد هو مرجعية دولة الفونج حتى حينما وصل رابيني إلى دولة الفونج في خواتيم القرن السادس الهجري توسل إلى عمارة دنقس مؤسس الدولة بأنه ليس فقط مسلماً ولكن كذلك شريف من أشراف مكة.

وأصبح التوحيد مرجعية نتيجة لتراكمات تاريخية أدت إلى تقبل أهل السودان للثقافة الإسلامية، نتيجة للتواصل الاجتماعي والتجاري مع الحجاز وطريق الحج ، حتى أن الرحالة العرب مثل أبو الحسن الشاذلي وابن بطوطة والحسن الوزان وغيرهم أدخلوا بلاد السودان في ظل الدولة الإسلامية بعد أن مروا بالحجاز ومصر عبر النوبة السودانية وعبر ميناءي عيذاب وسواكن – فمثلا حينما مر ابن بطوطة بالمنطقة عام ٧٣٢هـ– ١٣٣٣ م كان حاكم سواكن ابن أمير مكة ، كما أن الجنود النوبة أصبحوا الشوكة في الجيش المصري بل وصل أحدهم لمرتبة حاكم مصر "كافور الأخشيدي" الذي حكم مصر عام ٩٦٦ م وأصبحت مملكة المقرة سلطنة يحكمها حكام مسلمون منذ القرن الرابع عشر الميلادي. وذات التحولات التي حدثت للمقرة عملت عملها في علوة في إطار الهجرات العربية والتنوير الديني والمعرفي الذي كان يقوم به الفقهاء والذين التزموا العمل في مجتمع العامة وعلموهم الكتابة والقراءة وأطعموهم وربطوهم بشبكات التنوير الديني في شمال إفريقيا والحجاز وغرب إفريقيا، ورصد ذلك

في كتاب طبقات ودضيف الله وانتشار المذهب المالكي. ولعل تواصل طبقة الفقراء مع الحاكم جاء لتعزيز وضعية مدارسهم ومساجدهم والاستفادة من مكانة السلاطين ولقد رأينا بادي الثالث في حربه مع الأحباش يعتمد على التعبئة الدينية ويلبس ملابس رجال الدين، لذلك مقاربة فترة ١٦٥٠- ١٧٥٠ مع العصر الجاهلي تبدو غير دقيقة، لأن هذه الفترة كان فيها عود الثقافة الإسلامية قد استوى، أما الحروب والصراعات فلا تشبه صراعات الجاهلية في شيء – وإلا فإن الصراعات ما تزال عاملة وفاعلة في المجتمع الإسلامي منذ حروب الردة والفتنة الكبرى وانتهاء بما يجري اليوم في سوريا والعراق.

كشفت الدراسة عن توطن ممارسات وتقاليد مجانبة للثقافة الإسلامية مثل تعدد الخليلات، شيء من ذلك في قصور العباسيين، كما أن القتل الطقسي وقتل الإخوان حتى لا ينازعوا السلطان في سلطته وكرسيه كان موجودا عند العثمانيين – إذن الانحرافات عن منهج التوحيد ظلت شائعة في كثير من التجارب والسلطنات الإسلامية، ولكن منذ أيام عمارة دنقس أصبح الاتجاه الصاعد هو تقبل الثقافة الإسلامية طواعية وبلغ ذلك مبلغا كبيرا مع دخول التصوف المؤسس على يد السيد أحمد الطيب البشير والسيد محمد عثمان الميرغني وشيوخ التجانية ومن قبلهم شيوخ الشاذلية.

غطت الدراسة بصورة ممتازة الحروب الأهلية التي أضعفت شوكة سنار وهي ليست فقط حروب مابين الهامش والمركز ولكنها أساسا حروب المركز، مابين المركز والجعليين والشايقية ومابين المتنافسين على قيادة المركز ومابين الهمج والفونج .والهمج هم طبقة الجند الذين جاؤوا من الأطراف أو الهامش وأصبحوا الشوكة على يد محمد أبو لكليك بعد انقلابه في عام ١٧٦٢ واضطربت الأحوال في الدولة، حتى أن الاضطراب والصراع جعل خمس سنوات تشهد تتويج ومصرع ثمانية سلاطين، مما جعل البيئة

مهيأة لاستقبال جنود التركية في عام ١٨٢١ وأفول نجم الدولة السنارية ودخول السودان تحت ما يسمى بالحقبة التركية.

برزت بعض التحيزات التي لا تليق، مثل تأسفه على توسع العرب والسناريين في مناطق الشلك " اليس "الكوة" وتراجع القبائل السوداء، وكذلك محاولته تسيس المعرفة أو توظيف الدراسة في ثنائية الهامش والمركز وخلق احتقانات تاريخية من قصص وحكايات بإسقاط مقاييس القرن العشرين على القرن الثامن عشر، وكذلك ابتداع تصوير سلبي ونمطي للجلابة علما بأن بعض الرحالة الغربيين في القرن التاسع عشر، قالوا إن يكن في السودان خير، يظل يحكمه الدناقلة، لأنهم عرفوا الدولة والكتابة وكان فيهم ملك السودان منذ قديم الزمان، وحينما تكلم عن دور الأوربيين في تجارة الرقيق تكلم بلهجة اعتذاريه. وهم الذين وظفوا كبار تجار الرقيق من السودانيين في وظائف الدولة الكبرى وسهلوا لهم مهتهم .

ومع ذلك فالدراسة درس لناشئة الباحثين، وتدريب على الصبر على الوثائق والمخطوطات وفهمها واستخلاص الحقائق، حتى تعود مفيدة ومتجانسة في قصة مسبوكة مهضومة، وكذلك بناء الدارس لبحثه أو قصته من خلال الجمع مابين ما ورد في الأطروحات التاريخية والوثائق والروايات الشفاهية والملاحظات الذاتية ولذلك فإن الدراسة تمثل إضافة حقيقية للمكتبة السودانية.